تعريف المدرسة الصوفية :

المدرسة : هي هيكل تعليمي تنويري(4) يقوم بناؤه على 3 أعمدة هم :

المعلم (الشيخ المربي)، والتلميذ (المريد)، والمنهاج (علم التصوف).

السؤال: كيف نشأت المدرسة الصوفية ؟

نشأت المدرسة الصوفية بنشأة التصوف .

السؤال: متى نشأ التصوف ؟

منذ مقتل الإمام سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه دخلت الأمة الإسلامية في فتنة لا تبقي و لا تذر قسمت الأمة إلى فرق

وشيع عرفت "بالفتنة الكبرى" في الإسلام ويقول نيكلسون (*R.A.nicholson*) في هذا الصدد: " لقد مزقت الحروب الأهلية التي أعقبت هذه الفتنة الإسلام شر تمزيق ولم يلتئم بعد الجرح الذي أحدثته تلك الحروب(5) حسب تعبيره .

انتقل الحكم إلى يد بني أمية بحيث جعلوا الحكم وراثي مناف لمبدأ الشورى مع التعسف والكثير من العنف والاستبداد والإباحية ، وانتهت هذه الفترة بمقتل الإمام الحسين رضي الله عنه في كر بلاء سنة 61 هـ / 680 م(6) .

يضاف إلى ما تقدم أن حياة المسلمين الاجتماعية في العصر الأموي تغيرت .. بدأ الثراء يظهر في المجتمع الإسلامي مقترنا بحياة الترف وما قد تستتبعه من انحراف خلقي ، وهنا وجد المسلمون الأتقياء أن من واجبهم دعوة الناس إلى ما كان عليه السلف من تقلل وزهد وورع ، وعدم انغماس في الشهوات وأمثلة الدعاة إلى ذلك الصحابي أبو ذر الغفاري الذي انتقد حياة الأمويين المترفة ، وأساليبهم في الحكم نقدا شديدا ودعا إلى الأخذ باشتراكية الإسلام العادلة(7) .

نشأة حركة الزهد وتطورها (1 هـ /7م - 3 هـ /9م) :

قامت بداية حركة الزهد في أول أمرها بغير تخطيط أو تنظيم من جانب بعض الصحابة والصالحين الذين اهتموا بإصلاح حياتهم الخاصة والعامة إلا أنه مع مرور الوقت التف الناس

حول من اشتهر منهم بزهده وحسن سيرة حياته فذاع صيته، وانتشرت في أرجاء العالم الإسلامي كله، و هكذا تكونت حول هؤلاء الزهاد حلقات من التلاميذ تصاحبهم في حياة الزهد والعبادة والتنسك والبحث على إصلاح الذات في شتى العواصم الإسلامية خلال القرنين 1 هـ، و2 هـ وسمت هذه المراكز بحسب المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون " مدارس الزهد " (1).

السؤال: أين وجدت مدارس الزهاد هذه ؟ وما هي مميزاتها ؟

مدرسة المدينة المنورة: وكان من أشهر زهادها : أبو عبيدة بن الجراح ، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، وعبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وسعيد بن المسيب، وسالم بن عبد الله.

مدرسة البصرة: وكان من أشهر زهادها: الحسن البصري، ومالك بن دينار، وعبد الواحد أبن زيد، وأبو المهاجر رباح بن عمرو القيسي، ورابعة العدوية .

مدرسة خرسان: ومن أشهر زهادها: إبراهيم بن أدهم، وداود الطائي، والفضيل بن عياض وشقيق البلخي، ومعروف الكرخي.

مدرسة الكوفة: ومن أشهر زهادها: الربيع بن خيثم، وسعيد بن جبير، وطاووس بن كيان وسفيان الثوري.

مدرسة مصر: ومن أشهر زهادها: سليم بن عنتر التجيبي، وعبد الرحمن بن حجيرة، وحياة بن شريح الفقيه المصري، والليث بن سعد، وأبو عبد الله بن وهب بن مسلم المصري(2) .

وكان اهتمام هؤلاء الزهاد الأولين يدور في الأغلب حول فكرة الموت ويوم الحساب ومصيرهم بعد الموت من عذاب جهنم ونعيم الجنة ، فدفعهم هذا الشعور بالخوف إلى ممارسة حياة دينية جادة مع الحفاظ على أدق أحكام الشريعة ، بل إلى الزيادة فيها من النوافل والأعمال الصالحة.

وعلى أساس ذلك أقبل هؤلاء الناس على حياة الزهد والفقر والورع والاعتكاف والتهجد والصوم والتوكل وغير ذلك من طرق التنسك والتقشف ابتعادا منهم عن فتن الدنيا وفسادها ويقول صاحب كتاب مدخل إلى التصوف الإسلامي في هذا الصدد: " ولعله قد تبين من أقوال بعض زهاد البصرة في الزهد أنها كانت تدور حول معنى الخوف من عذاب الآخرة، وهو الخوف الذي سيتبع بالعمل الديني الجاد، والانصراف عن ملذات الدنيا بالتقليل في المأكل والمشرب وغير ذلك مما لا يخرج عن حدود زهد النبي وصحابته(3) .

قد يقول قائل: إن الإخوة نسمعهم دائما يقولون إن التصوف منشأه ومبعثه رسول الله (صل الله عليه وسلم) وفي هذه المحاضرة سمعنا أنه بدأ من بعد سنة 61 هـ كيف ذلك ؟

نجيبه بقول بن خلدون في مقدمته حيث يقول عند كلامه على نشوء علم التصوف قائلا: «... وكان ذلك في الصحابة والسلف فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن 2 هـ وما بعده , وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية و المتصوفة » (4)و الشاهد عندنا في هذا الكلام أنه كان في زمن الصحابة أي على عهد رسول الله (صل الله عليه وسلم) وسئل ذات مرة أبو الحسن الهجويري عن التصوف كيف أن منشأه رسول الله (ص)فأجاب قائلا :«أن التصوف كان موجودا في عهد رسول الله (صل الله عليه وسلم) و الصحابة رضي الله عنهم كحقيقة معاشة من غير اسم» (5)

من خلال هذا الكلام لمجموعة من العارفين يتضح أن واضع قواعد التصوف الأول –علم الأخلاق – هو سيد الوجود (صل الله عليه وسلم) وصحابته الميامين (رضي الله عنهم).

ازدهار المدارس الصوفية(3هـ/9م- 4هـ/10م):

بعد وصول العباسيين إلى الحكم سنة (132هـ/750م)(1) بدا العصر الذهبي للحضارة الإسلامية وهذا خاصة خلال خلافة هارون الرشيد (193هـ/809م) وابنه المأمون (218هـ/833م) الذي أسس بيت الحكمة (217هـ/832م) وأصبحت من خلاله

بغداد عاصمة عالمية علمية، وبرع فيها كثير من العلماء منهم أبو يوسف الكندي وأبي نصر الفرابي و الجاحظ وغيرهم، كذلك نشطت حركة الترجمة و العلوم لكن هذا الوضع العلمي الجيد كان يقابله وضع سياسي متأزم بسبب الحروب و الخلافات الداخلية و الخارجية، منها حرب الأمين و المأمون، سيطرة البويهيين على الحكم، ثورة الزنوج، حركة القرامطة، زحف الدولة الفاطمية من المغرب، هذا الوضع السياسي أفرز جنوحا عند الصوفية بالبعد عن أهل الحكم والسياسة والتوجه نحو حياة العلم والعمل مع المحافظة على الموروث القديم، فبرز منهم العديد في كثير من العلوم.

في التحليل النفسي (الحارث المحاسبي)، الفناء والمعراج الصوفي (أبو يزيد البسطامي)،النور المحمدي ومركزيته الكونية (سهل التسري)، الفناء ودرجات التوحيد (أبو القاسم الجنيد)، المحبة وتوحيد الصدق ومراحل الحياة الكونية (الحسين بن منصور الحلاج) هذا الزخم العلمي من المعارف الصوفية أدى بالمدرسة الصوفية إلى الازدهار في إثبات الوجود مع المحافظة على وحدة و مسيرة المجتمع الإسلامي و مسايرة أوضاعه من خلال تخصص المشايخ الذي أضفى تخصصات على مدارسهم، لكن بداية القرن الرابع الهجري تعتبر نكسة للمدارس الصوفية وذلك بسبب تحالف المؤسسة الفقهية مع المؤسسة السياسية حيث تم إعدام الحسين بن منصور الحلاج سنة (309هـ/922م)(2) الذي لم يستطع إخفاء أسراره وفيوضا ته وجعلها في قالب لفظي تقبله العامة وتفقهه وفق

منطق الشريعة فاتهم بالزندقة ثم كفَّر و أعدم .